



عنوان المقالة هو وصفُ الدولة التي أحب أن تقام في سوريا، وهي الدولة التي أتمنى أن أعيش فيها أنا وأولادي وأحفادي وحَفَدُهُ الأحفاد.

إنها دولةٌ تجمع الصفتين معاً - الدين والحرية - ولا تنفرد بواحدةٍ منهما، لذلك لم أحبَّ قط أن أعيش في دول الغرب رغم حريتها، لأن الحرية فيها بلا إسلام صارت تفتّاً وبهيمية لا تُطاق، ولم أحبَّ قط أن أعيش في دولة طالبان رغم إسلاميتها، لأن الإسلام فيها بلا حرية صار قيداً آسراً ولم يعد طرِيقاً لصفاء الروح وصلاح المعاش والمعاد.

إنني أصرّ على جمع الصفتين معاً في الدولة التي أريد لأن الحرية ثمرة طبيعية من ثمرات الإسلام، وأرجو أن يكون عامةُ السوريين مثلي حتى يحصلوا على أفضل دولة في العالم.

ولو أن الصفتين لم تجتمعا في دولة واحدة ثم خُبِرتُ بين دولة الحرية ودولة الإسلام (وأرجو أن لا أضطر إلى مثل هذا الاختيار) فلن أتردد في اختيار دولة الحرية، لأن الدولة المستبدّة التي تصادر حريات الناس بسبب الدين لا تثبت أن تصادرها بغيره من الأسباب، ثم تحول بسرعة وخلال جيل واحد أو اثنين إلى الاستبداد المطلق، ويفقد الدينُ دوره الفاعل في الحياة ويتحول إلى "أداة" من أدوات السلطة، فتكاد تقتصر قيمته على منح الشرعية للحكام المستبدّين. ولنا في التاريخ عبرة.

في ضوء المقدمة السابقة سأناقش بإيجاز ثلاثةً مشروعات للدولة السورية القادمة: المشروع الدولي، والمشروع العلماني، والمشروع الداعشي.

إن "الدولة" التي يتبعناها المجتمع الدولي ويدفع إليها من خلال المؤتمرات والمفاوضات السياسية تقوم على تزوير غريب بين طرفي النزاع، فهي تقترح دمج جزء من المعارضة بكتلة كبيرة من النظام القديم لإنشاء نظام خلاسيّ هجين جديد. غير أننا نعلم أن النظام الطائفي النصيري البعثي الذي احتل سوريا خلال السنوات الخمسين الماضية يتناقض تناقضاً جذرياً مع الحرية وكرامة الإنسان، فإذا بقي هذا النظام أو بقي أي جزء منه – ولو كان جزءاً ضئيلاً – فإن الشعب السوري سيظل محروماً من حريته وكرامته في المستقبل كما حُرم منها في الماضي، وبالمقابل فإن حصول السوريين على الحرية والكرامة يعني الفناء التلفائي للنظام ويقتضي نهايته الحتمية.

لذلك فإن أي حل للمشكلة السورية يتضمن بقاء أي جزء من النظام هو حل مرفوض لأنه سيحرم أهل سوريا من حريةهم التي يقاتلون من أجلها منذ ثلاث سنين، حرية الدين وحرية الحياة، فهو يتعارض تعارضًا كلياً مع الحرية ويتعارض تعارضًا كلياً مع الإسلام. وبذلك يسقط المشروع السياسي الدولي.

**المشروع العلماني قد يوفر للسوريين جزءاً من الحرية ولكنه يصادر جزءاً آخر، بل إنه يصادر الجزء الأهم، وهو حرية الدين وحرية الدعوة إلى الإسلام.**

فإنه يبدأ بفصل الدولة عن الدين، ثم يتدرج في تقييد الدين، ولا يليث أن يقوم بتفكيك الدين و اختيار بعض مكوناته "الآمنة" ونفي سائر المكونات (التي تهدد الكيان العلماني) عن الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية، وفي النهاية نحصل على دولة تدّعي حماية الحريات ولكنها – في الحقيقة – تصادر أهم الحريات وأكثرها قداسةً في حياة المسلمين، وهي حرية الدين.

لقد علّمنا عشرات التجارب السابقة في عالمنا العربي والإسلامي أن العلمانيين يُقبلون على الحرية ما لم تهدّم مشروعهم العلماني، فإذا كانت ثمرتها اختيار الإسلام لحكم البلاد فإنهم لا يبالون بها ولا يقيّمون لها وزناً، ولا يخجلون من مصادرة حق الأكثريّة في الاختيار.

لذلك فإن أي حل للمشكلة السورية يتضمن إنشاء نظام حكم علماني هو حل مرفوض، لأنه سيحرّم أهل سوريا من حريةهم الدينية التي يعتبرونها أهم وأقدس الحريات، وهو يتعارض تعارضًا جزئياً مع الحرية وتعارضاً كلياً مع الإسلام. وبذلك يسقط المشروع السياسي العلماني.

المشروع الداعشي (مشروع الدولة الإسلامية في العراق والشام) يزعم أنه يقدم النموذج الإسلامي للدولة، وهو في حقيقته يحرّم السوريين من حرية الدين ويفرض عليهم "نسخة" خاصة من الإسلام لا يملكون أدني حق في قبولها أو رفضها. ولا تتعجبوا من قولي "نسخة من الإسلام"، فإن الدين واحد له كتاب واحد، ولكن الأحكام الشرعية التي نطبقها في حياتنا هي خلاصة فهمنا البشري للدين ولنصوّره المقصومة.

فالنص واحد معصوم ولكن الفهم متعدد متّنوع غير معصوم، وما يصنعه مشروع داعش هو فرض نوع من أنواع الفهم البشري للإسلام على سوريا وأهلها دون أي اعتبار لفهم الآخرين من أئمة الدين وفقهاء الأمة المعترفين.

إن المشروع الداعشي يصادر حريات الناس ويفرض على المجتمع شكلاً محدداً من أشكال الدين، وهو يحرّم الجمهور من

حق الاختيار بمنطق الوصاية وتسلیط مَن يسمیهم "أهُل الْحُلْ وَالْعُدُّ" ، الذين لا يعرُفُ أحدٌ مِنْ أَيْنْ جاؤُوا وَلَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ يَدٌ فِي اخْتِيَارِهِمْ فِي أَيِّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ.

لذلك فإن أي حل للمشكلة السورية يتضمن إنشاء نظام حكم على الطريقة الداعشية هو حل مرفوض، لأنَّه يتعارض تعارضًا كليًّا مع الحرية ويتعارض تعارضًا جزئيًّا مع الإسلام الحقيقي بسعته ومرونته اللتين ارتضاهما له الله. وبذلك يسقط المشروع السياسي الداعشي.

\* \* \*

بقي المشروع السياسي للجبهة الإسلامية الجديدة. وبما أن الجبهة تمثل أفضل مشروع عسكري في سوريا فإننا نرجو لها أن تحمل أفضل مشروع سياسي أيضًا، ولكن المشروع السياسي الذي طرحته في ميثاقها المقتضب ليس كذلك، ومن ثم فإنَّه يستحق وقفة مفصلة لمناقشته، وهذا ما سأصنه في مقالة آتية مستقلة إن شاء الله.

الزلزال السوري

المصادر: